الآراء النقدية لـ :علـــيّ بن عبد العزيز الجرجانـــي في كتابه : الوساطة بين المتنبي وخصومه

د. حســـن محمد حسن خبيري ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة سبها

The Critical Views of Ali ibn Abdul Aziz al-Jurjani in His Book *Al-Wasita* (The Mediation) Between Al-Mutanabbi and His Adversaries

Hassan mohammed Hassan khabeeri
Has.khabeeri@sebhau.edu.ly

This study explores the critical views presented by the critic Ali ibn Abdul Aziz al-Jurjani in his book *Al-Wasita* (The Mediation) between Al-Mutanabbi and his adversaries. It focuses on the key critical issues he addressed in his work and the poetic evidence he provided to clarify his ideas. Al-Jurjani raised numerous critical topics that are fundamental to both ancient and modern literary criticism. However, this research will concentrate on the issues that have been widely discussed by other critics of his era, allowing for a comparison of his opinions with those of his contemporaries, and examining the influence he had on later critics.

The selected topics include the concept of the "column of poetry," the issue of poetic theft, and the themes of exaggeration and hyperbole. This will involve outlining the views of earlier critics on these matters, followed by an explanation of Al-Jurjani's perspective, along with a discussion of the poetic evidence he used to support his arguments.

الملخّـــص:

يتناول هذا البحث الآراء النقدية التي تناولها الناقد علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وذلك بالوقوف عند أبرز القضايا النقدية التي تحدث عنها في كتابه، والأدلة الشعرية التي ساقها لتوضيح فكرته. فالجرجاني طرح في كتابه هذا الكثير من القضايا النقدية التي تعد أساس النقد الأدبي في القديم والحديث، ولكن سنقف منها على ما كثر الحديث عنه عند غيره من نقاد عصره؛ لنقارن رأيه برأي معاصريه ، وننظر تأثر النقاد الذين جاءوا من بعده بآرائه النقدية . فكان الاختيار على قضية عمود الشعر، وقضية السرقات الشعرية، وقضية الغلو والمبالغة. بتوضيح آراء النقاد السابقين فيها ، ثم توضيح رأي الجرجاني . ومناقشة الأدلة الشعرية التي استدل بها على رأيه .

الكلمات المفتاحيـــــة: (الجرجاني – الوساطة – عمود الشعر – السرقات – الغلو)

المقدمـــــــة:

النقد الأدبي هو الجــزء المكمل للعمل الأدبي، فهو الحكم على العمل الأدبي بالجودة أو الرداءة، وكما أن الأدب إبداع له مقاييس فنية يقوم عليا، فإن النقد له موازين يقيس بها جودة الأدب. فحيثما وجد الأدب وجد النقد الذي يعالجه ويتلمس مواطن الإبداع فيه. ويقوّم الخطأ منه. وكما أن الأدب وليد بيئته، معبرًا عنها مستقيا موضوعاته منها ، فإن النقد هو ابن البيئة أيضا ، يستقي أحكامه ومقاييسه من ذوق المجتمع الذي يوجد فيه . والنقد يتطور بتطور الأدب، وتتعدد اتجاهاته بتعدد اتجاهات الأدب ومدارسه، فكما نجد مدارس أدبية جديدة ومعاصرة، فإن النقد تعددت مدارسه ومناهجه بما يلائم تطور الأدب. ولكن كما ننطلق في قراءتنا للأدب من تراثنا القديم بكونه الأساس الذي بني عليه ، فإن الحال ذاته في النقد ، اسسه وجذوره في التراث العربي القديم، فمهما تعددت المدارس وتباينت المناهج ، فإن الأساس الذي انطلقت منه هو التراث العربي القديم ، الذي أسس له نقادنا الأوائل ، ومهدوا فيه لهذه المدارس والنظريات الحديثة ، فجل ما يطالعنا به المحدثون هو ما سبق إليه الأقدمون من نقادنا .ومن تم جاءت أهمية هذا البحث ، بأنه دراسة في الأصول التراثية الي بنيت عليها النظريات النقدية الحديثة ، فهو تعريف بالفكر النقدي الذي كان عليه النقاد المتقدمين والقضايا النقدية التي وضعوها لتقييم الأدب

مشكلة البحث:

يعالج هذا البحث مشكلة ادعاء بعض الدارسين قصور الفكر العربي عن استنباط النظريات الجديدة ، في حين ينسبون كل ما هو جديد إلى فكر وافد إلى الأدب العربي .

أسئلة البحث:

تتمثل أسئلة البحث في مدى استفادة النقد الحديث العربي منه والغربي من الفكر النقدي العربي القديم ؟

فرضية البحث:

يفترض هذا البحث وجود امتداد فكري للقضايا النقدية التي أسس لها نقادنا الأوائل بشكل عام، وتناولها الجرجاني في كتابه الوساطة بشكل خاص، إلى النظريات النقدية الحديثة التي يعالجها النقد المعاصر .

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى توضيح طبيعة التفاعل الثقافي والتاريخي بين النقد العربي

القديم والنقد المعاصر، وأنه - أي النقد العربي القديم - أساسٌ طوره النقاد المحدثون وبنوا عليه نظرياتهم النقدية، ومن ثم طبقوها على نصوصهم الأدبية.

منهـــج البحث:

ستكون هذه الدراسة وفق المنهج الوصفي؛ وذلك بوصف القضايا التي طرحها الجرجاني في كتابه الوساطة، وأدلته التطبيقية من الشعر العربي.

وستكون هذه الدراسة:

في خمسة مطالب تتناول القضايا النقدية التي تناولها الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه: المطلب الأول: كتاب الوساطة وقيمته الأدبية ، والمطلب الثاني : عمود الشعر المطلب الثالث : بنية القصيدة ووحدتها ، والمطلب الرابع : السرقات الشعرية ، والمطلب الخامس : المبالغة والغلو في الشعر ، ثم خلاصة البحث ، وثبت للهوامش والمصادر .

المطلب الأول ـ كتاب الوساطة وقيمته النقدية:

كتاب الوســـاطة بين المتنبي وخصومه أحد أهم الكتب التي حوت التراث النقدي العربي، ويعد عمدة للدراسات النقدية إلى يومنا هذا ، ولابد لدارس الأدب العربي من مدارسة هذا الكتاب ضمن ما يؤسس به نفسه لممارسة العمل النقدي، فالجرجاني في هذا المؤلف شأنه شأن نقادنا الأوائل وقف عند جل القضايا النقدية التي نتدارسها اليوم ،أسس لها قواعد ،ثم تناولها بالدرس والتحليل ، فاستنبط منها من جاء بعدهم من النقاد الآراء النقدية وتعاملوا من خلالها مع النص الأدبي شرحا وتحليلا ونقدا . واليوم ونحن نشهد هذا التطور الأدبي وهذه المدارس النقدية المتعددة، نجد بعض تنظيراتها تعزى إلى ما قد وفد إلينا من مدارس غير عربية، في حين أن كتب التراث العربي تحوي هذه القضايا إن لم تكن هي مصدرها ، ولا يعني هذا أن ليس ثمة آراء نقدية جديدة ، لا بل لما يزل النقد متطورا بتطور الأدب والحياة في كل عصر ، والفكر الإنساني يبتدع الجديد في كل يوم ، وتراثنا العربي به أصالة هذا التجديد .

اسم الكتاب وصحة نسبه : ثمة اختلاف يسير في اسم هذا الكتاب ، فهو كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) عند جمهور المؤرخين (1). وهو(الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره) كما في يتيمة الدهر(2)، و(الوساطة بين المتنبي وخصومه في نقد شعره) في كشف الظنون . (3)

وهذا الكتاب ينسب تأليفه للقاضي علي بن عبد لغزيز الجرجاني، ولم يرد عند أي من المؤرخين القدامى أو المحدثين غير ذلك ؛ فقد أشار ابن رشيق القيرواني في كتابه

العمدة إلى أخذه آراء للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة في عدة أبواب من كتابه اهي: باب حد الشعر، وباب التشكك، وباب الهجاء. وقد استخدم لفظ الوساطة دون أي إضافات أخرى.(4)- أيضا - أشار ابن الأثير في كتابه المثل السائر إلى أن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه منسوبا للقاضي أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني .(5)، ومن ثم يتضح أن الاسم الأصلي للكتاب هو (الوساطة بين المتنبي وخصومه) كما يرى جمهور المؤرخين ، وهو ثابت النسبة للقاضي عبد العزيز الجرجاني .

سبب تأليف كتاب الوساطة: اعتاد مؤلفو الكتب التراثية أن يذكروا في مقدمات كتبهم سبب تأليف الكتاب، وهذه السنة جرى عليها القاضي الجرجاني في هذا المؤلف، وقد ذكر القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني أن تأليف كتابه الوساطة يرجع إلى سببين.

ـ أولهما: أنه ندب نفسه إلى كتابة هذا المؤلف بعد أن اشتدت الخصومة حول المتنبي بين المادحين المتعصبين له أمثال الصابي، وابن جني، والضبي، والخوارزمي، وبين القادحين المتعصبين عليه أمثال الصاحب، والحاتمي، وابن وكيع.

فرأى أن يقول كلمة حق في مسالة هو متمكن منها، محيط بأبعادها، وساعده في ذلك منطق القاضي في الاسترشاد والاستنباط والمقايسة وما إلى ذلك من آداب القضاء وروحه.

ـ ثانيهما: الرد على الصاحب بن عباد؛ ويبين ما يستحقه المتنبي وهذا الرأي قال به الثعالبي في يتيمة الدهر: (ولما عمل الصاحب رسالته) المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي وخصومه في شعره، فأحسن و أبدع و أطال و أطاب، و أصاب شاكلة الصواب، وأعرب عن تبحره في الأدب، وعلم العرب وتمكنه من جودة الحفظ، وقوة النقد، فسار مسير الرياح، وطار في البلاد بغير جناح ...). (6)

هذا فضلا عن أن الحركة النقدية التي راجت في ذلك العصر كانت تدفع القاضي الجرجاني إلى تأليف كتابه، فلم يكن كتاب الصاحب بن عباد سوى حافز من حوافز عدة. جعلت الجرجاني يؤلف كتابه الوساطة .

مـادة الكتـاب : يعد كتاب الوساطة رسالة واحدة مترابطة الأفكار، ويمكننا أن نقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء رئيسية :

- الجزء الأول: المقدمة وقرر فيها القاضي الجرجاني موقفه من الأدب ونقده، وأوضح فيها جل النظريات النقدية التي جاء بها واعتمد عليها، وهذا هو الجانب الدافع لهذا البحث ، أي رؤية الجرجاني النقدية ، وتعامله مع قضايا الأدب ونقده

الجزء الثاني: دفاعه عن المتبني ، فقد حصر خصوم المتبني في فريقين :(أحدهما يعم بالنقص كل محدث، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلي، وما سلك به ذلك المنهج، وأجرى على تلك الطريقة....وإذا انتهى إلى ما بعدهم – كبشار وأبي نواس وطبقتهم – سمى شعرهم ملحاً وطرفا، واستحسن منه البيت استحسان النادرة ، وأجراه مجرى الفكاهة، فإذا نزلت به إلى أبي تمام وإضرابه نفض يده، وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتاً قط، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد (7) ويرد القاضي عليهم بأن كبار الشعراء وقعوا فيما وقع فيه المتبني من أخطاء .

أما الجزء الثالث: فعبارة عن نقد تطبيقي يتناول فيه القاضي مأخذ الخصوم على المتبني، ويناقشها ويفندها، ويرد على بعضها، ويسلم ببعضها الآخر.

منهج القاضي في كتابه : المنهج الذي اتبعه القاضي في هذا الكتاب يتمثل في أنه طرح القضايا النقدة التي يقوَم بها العمل الأدبي، ثم يرد ما تعرض له كبار المحدثين أمثال: أبي تمام، و المتبني ، من حملة غير مبرره إلى الغيرة والحسد . ومن ثم بدأ بتوضيح جهة خطابه، فقسم خصوم المتنبي فريقين:

أحدهما يعم بالنقص كل محدث، ولا يرى شعراً إلا القديم الجاهلي، وما جرى على تلك الطريقة، وهو فريق لا فائدة من الرد عليه ما دام هذا رأيه.

وفريق ثانٍ ينصف الشعراء المحدثين كأبي تمام، والبحتري، وابن الرومي وأبي نواس، ويمدحهم، ولكنه يأبى أن يعترف بفضائل أبي الطيب، وهذا الفريق الخصم الألد والمخالف والمعاند (8). فرد القاضي الجرجاني عليهم ليثبت مكانة المتبني الأدبية مطبقا:-

أ ـ مبدأ قياس الأشباه والنظائر: إذ يقارن بين الشاعر وغيره من الشعراء، سواء سبقوه أو جاءوا بعده ، فإن أخطأ الشاعر أو بالغ أوقال أبياتاً تمس العقيدة و الأخلاق ، فقد فعل الشعراء ذلك من قبل .

ب ـ الاعتدال في الحكم على الشاعر، وهي أن نأخذ من حسنات الشاعر بمقدار أخذنا من سيئاته ؛ ؛ فإذا وجدنا له من حسناته النسبة الكافية لتغطية سيئاته حكمنا له و إلا حكمنا عليه . (9)

ودليل ذلك عند القاضي تفاوت شعر بعض الشعراء، أمثال أبي نواس ، وأبي تمام ، وامرئ القيس والبحتري وغيرهم وقد شهد لهم أشهر النقاد ومنهم الأصمعي .

كما أوضح الجرجاني أن السبب في اختياره لأبي نواس، وأبي تمام، هو الاعتذار لأبي الطيب بقوله :-(وإنما خصصت أبا نواس، وأبا تمام لأجمع لك بين سيدي

المطبوعين وإمامي أهل الصنعة وأريك أن فضلهما لم يحمهما من زلل وإحسانهما لم يصف من كدر) .(10)

أهمية كتاب الوساطة في النقد الأدبي: يُعتبر كتاب الوساطة من أهم كتب النقد في القرن الرابع الهجري لسببين: -

ـ أولهما أنه يتصل بشاعر من أكبر شعراء العربية ذكرا وشهرة، وعرب بأنه ملأ الدنيا وشغل الناس.

ـ وثانيهما أن القاضي كان موضوعيا، حاول أن يناقش الكثير من مشكلات النقد بطريقة علمية منهجية، دون الاعتماد على إطلاق العيوب، أو إلصاق التهم جزافا، أو التفاخر الكاذب، وإبراز ما للشاعر وما عليه. (11)

ـ ويمكن أن نضيف إلى ذلك أهمية ثالثة، وهي أن الكتاب اشتمل على الكثير من الجوانب النقدية لشعر كبار الشعراء العرب، مما يعكس اهتمام القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بالأدب العربي وتاريخه، ومساهمته في إبداء رأيه النقدي في هذا التراث الأدبي.

ولذلك نجد هذا الكتاب تضمن العديد من القضايا النقدية أبرزها: الخلق الفني أو الشعري، أثر الطبع والبيئة في أسلوب الشعر، الفصل بين الدين والشعر، عمود الشعر. وحدة القصيدة في الشعر العربي، السرقات الأدبية، الغلو والمبالغة، وغير ذلك من الموضوعات التي يعرض لها في انتصاره للمتنبي. وسنقف في هذا البحث عند أبرز القضايا التي كانت مثار نقاش بين النقاد في عصره، وتعد أحد ملامح التجديد آن ذاك ، ألا وهي عمود الشعر ، ووحدة القصيدة ، والسرقات الشعرية ، والغلو والمبالغة . وهذا لا يعني عدم أهمية الموضوعات الأخرى التي عرض لها في كتابه، ولكن ليكون الحديث عما كثر الجدل حوله من قضايا الأدب.

المطلب الثـــانـــي ـ عمـــــود الشعـــر:

عمود الشعر: هو طريقة العرب القدماء في نظم الشعر أو هو القواعد أو الأسس التي بني عليها الشعر القديم، ويجب على الشاعر أن يأخذ بها فيحكم له أو عليه.

1 ـ الآمدي وعمود الشعر: عند تتبع هذا المصطلح فإننا لا نجد من النقاد قبل الآمدي، من تحدث عنه بهذه اللفظة (عمود الشعر)، وإن كان لم يحدد عناصر عمود الشعر بشكل واضح صريح ، و إنما هي عناصر استنتجت من كلامه عن مذهبي أبي تمام و البحتري ، وعن تصوره الخاص لطريقة الشعر عند العرب . فقد نص على أن البحتري كان أعرابي الشعر مطبوعا وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر، في

حين يرى الآمدي أن أبا تمام خرج عليه (12). فيقول الآمدي على لسان البحتري الذي سئل عن نفسه وعن أبي تمام فأجاب: (كان أغوص على المعاني مني ، وأنا أقوم بعمود الشعر منه)(13). وهذا يؤكد أن المصطلح جاء تأييدا من الآمدي لشعر البحتري حيث يقول: (ليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعاني باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل في مثله . وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء و الرونق إلا إذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحتري)(14)

لذلك يعد الآمدي أول من تحدث عن عمود الشعر وحدد صفاته وعناصره، كما وضح ما وقع فيه أبو تمام من تعقيد ، وألفاظ مستكرهة و كلام وحشي ، وإبعاد في الاستعارة ، واستكراه في المعاني ؛ والتي لم يقع فيها البحتري في شعره .

2 ـ الجرجاني وعمود الشعر : قرأ القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني ما كتبه الآمدي عن عمود الشعر، فحاول أن يستفيد من ذلك ، فلقد أدرك أن الآمدي أفاض الحديث في هذه القصية ، ولهذا جاءت معالجة الجرجاني لعمود الشعر محاولة لتوضيح عناصره وآلية تطبيقها : أي أن مجموعة عناصر الشعر ومقوماته الأساسية تصلح للتطبيق على كل شعر وكل شاعر .(15)

فيقول القاضي في ذلك: (كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة و الحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ و استقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته).(16) ، وجل العناصر التي تحدث عنها القاضي على أنها مقياس المفاضلة و السبق بين الشعراء ؛ وعلى أنها معيار للشعر الجيد ، هي عناصر عامة تتوافر في الشعر القديم ؛ مثلما يجب أن تتوافر في الشعر الحديث كذلك.

فالعناصر التي حددها القاضي للشعر ستة، بعضها يتعلق باللفظ الذي ينبغي أن تتوفر فيه الجزالة و الاستقامة ، و بعضها يكون في المعنى الذي يشترط فيه الشرف و الصحة ، ويستحسن منه ما كان سهلا مفهوما ، وبه ما يجعله يسير مثلا على الألسنة ، وبه أبيات شاردة يتناقلها الناس ويحفظونها حكما وشواهد ، ويتعلق بعضها الآخر بالخيال . كما أن الجرجاني كان يؤثر ما كان مطبوعا سهلا قريب المتناول ، يصيب الوصف ، ويقصد الغرض من السبيل الصحيح. (17)

ونلاحظ أن القاضي تحدّث عن عناصر أو خصائص عمود الشعر بشكل عام ولم

يحصرها في الشعر الجاهلي كما فعل الآمدي ؛ و إنما تحدث عن عمود الشعر الذي يضم مجموعة عناصر ومقومات لا يقوم الشعر إلا بها سواء كان قديما أم حديثا .

والعناصر التي ذكرها الجرجاني لعمود الشعر سبق وأن أشار إليها الآمدي، ولكن بعبارات أخرى، مثل الأبيات السائرة والأمثال الشاردة، وقد استند القاضي في حديثه عن عناصر عمود الشعر إلى الذوق العام، ليفتح الباب بقوة لكثير من نماذج الشعر الحديث وشعرائه (18)

ولقد استفاد القاضي من الآراء و النظرات النقدية التي سبقته، فأحسن استغلالها في التطبيق و العرض، فكانت نظرته أوسع مدى من غيره، ومثال ذلك في حديثه عن خيال الشاعر ووصفه بعبارة (الإصابة في المعني) التي يدخل تحت مدلولها الأوصاف الجديدة التي يبتدعها خيال الشاعر ما دام قد أصاب في وصفه و أتى بالغرض على وجهه الصحيح الكامل .

ويلتقي عمود الشعر عند القاضي الجرجاني مع الآمدي في أنه ينفر من المعاني المعقدة الغامضة التي تستخرج بالغموض والفكرة وتحتاج إلى تأمل ونظر واستنباط. وفي ذلك يقول: "والشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر و المحاجة، ولا يحلى في الصدور بالجدل و المقايسة و إنما يعطفها عليه القبول و الطلاوة، ويقربها منه الرونق و الحلاوة " (20) .

3 ـ المرزُوقـــي وعمـود الشّـعر: إن ما تناوله الجرجاني في كتابه الوساطة من قضايا نقدية كان له أثر كبير في أراء النقاد الذين جاءوا بعده، فالإمام المرزوقي اعتمد كثيرا على رأي الجرجاني في قضية عمود الشعر ، فقد عرض أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي لمصطلح عمود الشعر في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام ، وما كتبه المرزوقي يعد أول محاولة جادة لتحديد عناصر عمود الشعر ؛ ومقياس كل عنصر من عناصره؛ وقد استفاد في نظريته من كل الآراء النقدية التي سبقته .

فقد عاد إلى العناصر التي عددها الآمدي ووضحها القاضي الجرجاني وهي:

شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه. وزاد عليها التحام أجراء النظم و التئامها، ومناسبة المستعار منه للمستعار له مشاكلة اللفظ وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تحدث منافرة بينهما (21) .

ونلاحظ أن المرزوقي استغنى عن (الغزارة في البديهة) وعن (كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة) وعدها متولدة عن اجتماع العناصر الثلاثة الأولى، ثم استخلص عيار كل عنصر منها ؛ من آراء ، الآمدي ، وقدامة ، و الجرجاني ، وابن طباطبا ؛

وهي :
- عيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح ، والفهم الثاقب .
- عيار اللفظ ، الطبع ، الرواية ، والاستعمال .
- عيار الإصابة في الوصف الذكاء ، وحسن التمييز .
- عيار المقاربة في التشبيه الفطنة ، وحسن التقدير .
-عيار التحام أجراء النظم و التئامه ، على تخير من لذيذ الوزن الطبع ، واللسان .
-عيار الاستعارة ، الذهن ، والفطنة .
-عيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية ، طول الدربة ، ودوام الممارسة .
فكل عنصر عنده له معيار ، ونستطيع أن نمثل أنواع المعيار بما جاء به القاضي الجرجاني ، حين تحدث عن العناصر الأربعة اللازمة للشاعر ، ولا ريب أن العقل و الفهم ، والذكاء و الفطنة ، و الذهن تعبير عن حقيقة واحدة.
كما أن الاستعمال وطول الدربة شيء واحد ؛ إذن معايير المرزوقي هي : الطبع ، الرواية ، الذكاء ، الدربة ، وهذه المعايير هي ما قال به الجرجاني؛ إلا أن الجرجاني افترض وجود هذه العناصر في الشاعر. (إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع ، و الرواية ، والذكاء ، ثم تكون الدربة مـادة له ، وقوة لكل واحد من أسبـابه ، فمن اجتمعت له هذه الخـصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان) (21).
أما المرزوقي فيرى ضرورة توافرها في المتلقي أو المتذوق أو الناقد[22] .

المطلب الثـــــالث ـ وحدة القصيـــــــــدة وبناؤها :

1 ـ النقاد ووحدة القصيــدة: قضية أخرى عرض لها الجرجاني في كتابه الوساطة ، وهي قضية وحدة القصيدة ، وهي موضوع جدل ونقاش إلى يومنا هذا بنى عليه النقاد المحدثون نظرياتهم لبنية القصيدة العربية . وقد اختلف الأدباء و النقاد في نظرتهم لوحدة القصيدة، وتباينت آراؤهم أحيانا، واتفقت أحيانا أخرى ، وفي جملة آرائهم لم يغفلوا العناية بالقصيدة ، بحيث ينشأ كل جزء من الجزء الذي قبله، ويستدعي الجزء الذي بعده حتى تتكامل أجزاء القصيدة وتشملها عاطفة واحدة وهو ما يعرف (بالجو العام) ، وتقتضي وحدة العمل الفني إدراك ما يتضمنه من أفكار ثم تنظيم المعاني بحيث تكون مرتبة منسقة لتتجلى وحدتها . وقد أدراك العرب هذا الترتيب في الشعر ، وجعلوه أساسا في النثر أيضا ، بفنونه كالخطابة و الرسالة مثلا . وأبيات القصيدة اهتم بها المحدثون مند العصر العباسي نقادا وشعراء، فأخذوا يهتمون

بالبدء والانتقال منه إلى الغرض، ثم الخاتمة [23]. فالجاحظ في كتابه البيان و التبيين يقول : "إن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان "[24] ؛ وقد مثل لذلك بقول أبي البيداء الرياحي:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل

فيقول إنهم بذلك عابوا أن يكون الشعر متفرقا[25] .

وابن قتيبة في الشعر و الشعراء يرى أن تعدد الموضوعات أو الأغراض في القصيدة الواحدة يعود إلى عوامل نفسية و بيئية " إن الشاعر إنما بدأ قصيدته بذكر الديار و المدن و الآثار ، فشكا وبكى ، وخاطب الربع و استوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين.....ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الشوق و ألم الوجد و الفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إلية الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إلية لان النسيب قريب من النفوس....." [26] .

وعل الرغم من تغير ملامح الحياة العربية بعد الإسلام ، خاصة سكان الحضر منهم ، إذ عمتهم الحضارة وسكن الشعراء القصور بدل الخيام ، فعلى الرغم من هذا لم يتغير نظام القصيدة تغييرا جذريا أو جوهريا .

فأنصار القديم كانوا لا يجيزون لمحدث أن يخرج عن نظام القصيدة الجاهلية ؛ ولكن بعض المحدثين قللوا من قيمة افتتاح القصائد بما لا يناسب غرضها ، وعابوا على الشعراء استهلال الشعر بأبيات لا صلة بين معانيه وبين موضوع القصيدة [27] ، (يكون البيت مقرونا بغير جاره ، ومضموما إلى غير لفقه ولذلك .قال بعضهم للآخر : أنا أشعر منك . قال : وبما ذلك ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه ، وتقول البيت وابن عمه" [28]- أيضا- ابن طباطبا في عيار الشعر لديه إشارات إلى ذلك منها قوله : " إن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه ، على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح ومن المديح إلى الشكوى.....بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله" [29] ، ويقول : " وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره، على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل ، كما يدخل الرسائل و الخطب.....بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ،

نسجا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقـة معانٍ وجواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر مع كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا.....حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا.....لا تناقض في معانيها " [30] ، ويقول ابن رشيق في العمدة نقلا عن الحاتمي : " من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه ، أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به غير منفصل عنه . فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض. فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتنفي معالم جماله" [31] .

فوصل أجزاء القصيدة على نظامها الجاهلي، في جمعها بين الغزل والمدح ، أو وصف الديار و الآثار و النوق وحدة لها ، فلا يكون المعنى الثاني منفصلا عما قبله متى تخلص الشاعر إليه تخلصا حسنا [32] .

2 ـ القاضي الجرجاني ووحدة بناء القصيدة : تناول الجرجاني هذه القضية ، كما تناولها سابقوه ، وكان رأيه لا يخالفهم ، فوحدة القصيدة وتماسكها أحد معايير جودتها ، وذكر القاضي في كتابه الوساطة أجزاء القصيدة وأقسامها بين الاستهلال ، والتخلص ، والخاتمة ، قائلا :" والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال و التخلص وبعدها الخاتمة ، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء ، ولم تكن الأوائل تخصها بفضل مراعاة ، وقد احتذى البحتري على مثالهم إلا في الاستهـلال ، فإنه عني به فاتفقت له فيـه محـاسن ، فأما أبو تمام و المتنبـي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب ، واهتمامه به كل اهتمام ، واتفق للمتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد ، وأحسن وزاد" [33]

فالجرجاني بدأ حديثا مجملا عن بنية القصيدة بأنها أقسام ، من استهلال وتخلص وخاتمة ، فهذه هي شروط بناء القصيدة ، مبينا أهمية هذا التقسيم بأنه هو ما يشد السامع ، ويحفزه إلى تتبع السرد الذي يأتي به الشاعر والأحداث التي يذكرها متعاقبة ، فيشوقه لمعرفتها ، وقد أشار الجرجاني إلى أن هذا التقسيم هو من سنة الأوائل في بناء القصيدة ، إلا أنهم لم يحفلوا كثيرا بالاستهلال ومطلع القصيدة ، وربما عنى بذلك أنها كانت سنة فحسب يحرص الشاعر على الإتيان بها ، وربما هذا إشارة منه إلى عدم ارتباط تلك الاستهلالات بموضوع القصيدة ، وعدم إيحاء المطلع بموضوع القصيدة ، وهذا أمر واضح عند شعراء الجاهلية ، إلا ما نذر من ذلك . ومن بعد ذلك كان حديثه عن المحدثين، فبدأ بالبحتري الذي يرى أنه رغم سيره على خطى الأوائل ، إلا أنه احتفى بالاستهلال وجود فيه وربما رسم طريقا لمن جاء بعده ،

فالاستهلال:هو أن يأتي الأديب في بدء كلامه ببيت شعر، أو قرينة تدل على مراده [34] كقول أبي تمام في المراثي :

كذا فليجعل الخطب و ليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر[35] .

ومن بعد ذلك يصل الجرجاني إلى شرط كتابه وهو الانتصار للمتنبي ، فيقول إن المتنبي وصل الغاية القصوى في بناء مطالعه واستهلالاته وفاق من سبقوه وأتى بما لم يأت به الشعراء . ومثل لبديع الاستهلال بقول المتنبي في النسيب :

تراها لكثرة العشـــــــاق تحسب الدمع خلقة في المآقي ؟[36]

فيقول عنه " فانه ابتداء ما سمع مثله ومعنى انفرد باختراعه "(37)

وقوله: **على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (38)**

وقوله : **الرأي قبل شجاعة الشجعـــان هو أول وهي المحل الثـــاني (39)**

وقوله : فديناك من ربع و إن زدتنا كربا فإنك كنت الشرق للشمس و الغربا [40].

وكأني به يقول إن الاستهلال الجيد البديع هو ما تضمن حكمة ، وخلى من اللفظ الغريب ، والأسلوب الركيك المستغلق عن الفهم ؛ ولهذا مثل بسيء الابتداء بقول المتنبي :

كفى أرانى ويك لومك ألومـا هم أقـــــــام على فؤادٍ انجما (41)

وقوله : هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيســـا (42)

أما التخلص ، فبعضهم يسميه الخروج : وهو الانتقال من النسيب أو نحوه مما هو في مقدمة القصيدة ، إلى ما بعده من مدح وغيره . فيقول : " ابن رشيق قد كانت العرب في جاهليتها تنتقل فجأة بقولها : (دع ذا) و (عد عن ذا) و (إلى فلان قصدت) وما شاكل ذلك ، بل كانوا ينتقلون أحيانا دون شيء من ذلك . وقد جاراهم البحتري . في قوله :

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجـاء موكل

إن الرعية لم تـــزل في سيرة عمرية مذ ساسها المتوكل " [43]

والجرجاني جعل بابا من كتابه لحسن التخلص وحسن الخروج (44)، وعلى الرغم من أنه لم يفصل القول فيه ، إلا أنه جمع ما رأى أنه حُسن تخلصٍ عند المتنبي (45)،

ولنا أن نقيس عليه ونستخلص رأيه في التخلص الحسن . فمما وصفه بحسن التخلص قول المتنبي:

حَدَقٌ يُذِمُ منَ القواتل غيـــرُها بدر بن عمار بن إسماعيلا (46)

وقوله: **ومقانب بمقانب غادرتـــــها أقوات وحش كن من أقواتهـا** (47)
أقبلتها غرر الجياد كأنمـــــا أيدي بني عمران في جبهاتها

ويورد الجرجاني أبياتا أخرى للمتنبي ، يصفها بحسن التخلص من الاستهلال إلى غرض القصيدة ، وبقراءة كل الأبيات التي استدل بها يلاحظ أن ما يجمع بينها في الحسن ـ كما يرى الجرجاني ـ هو ذكر اسم الممدوح الذي قصد بالمدح في القصيدة ، فيأتي الحديث إشعارا للقاريء بأن المدح سيكون لمن ذكر اسمه . وحقيقة يعد ذلك من بديع التخلص ويذكرنا بقصيدة النابغة في الاعتذار للنعمان بن المنذر ومدحه (يا دار مية بالعلياء فالسند) ، فبعد استهلاله بالوقوف على الأطلال ، ووصف الرحلة ووصف ناقته القوية يتخلص إلى غرضه بقوله :

فتلك تبلغني النعمان إن لـــه فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد (48)

أما العنصر الأخير من بنية القصيدة فهو الخاتمة ، ويقول عنه ابن رشيق : " إن براعة الختام : هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الأديب مستحسنا عذبا ؛ لأنه آخر ما يبقى في الأسماع "(49) .

وعلى الرغم من أن الجرجاني ذكرها في بدء حديثه عن أجزاء القصيدة ، إلا أنه لم يحتف بها في كتابه كالاستهلال والتخلص ، ولم يمثل لها بأشعار للمتنبي أو سواه

إذن ، فالجرجاني سار في رؤيته لبنية القصيدة مسار النقاد الأوائل ، وبدا واضحا رأيه أن الشعر الجيد هو ما تماسكت أجزاؤه ، وتعطفت جوانبه ، واستدعى أوله آخره ، فكأنما سبك سبكا ، فلا يجد القارئ تنافرا بين أجزاء القصيدة .

المطلب الرابع ـ السرقات الشعرية:

السرقات الشعرية قضية بارزة في النقد الأدبي، لأنه معرفته السبيل الذي يوصل الناقد لمعرفة إبداع الأديب ومقدرته على الابتكار، ومقدار تأثره وتأثيره في الآخرين، كما تعد مظهرا من مظاهر الصراع بين القديم والحديث.وأهم ما يمكن ملاحظته عنها:

1- أخبارها مبثوثة في كتب عديدة، ككتب الطبقات و التراجم، وكتب الأدب ، و الكتب العامة في النقد و البلاغة ، وكتب السرقات ، وكتب النقد الخالص .
2- القول فيها ينتعش وينشط، عندما كان يظهر شاعر يحدث تجديدا في الشعر العربي، وهذا سبب دوران الكتب الخاصة بالسرقات حول أبي نواس ، وأبي تمام ، و المتنبي ، والبحتري
3- شغل بها النقاد و الشعراء على حد سواء ، ووسعوا فيها مجال البحث والقول .
4- السرقات الأدبية عرفت طريقها إلى الفكر العربي من أقدم العصور[50] .
ويرى القاضي الجرجاني أن السرقة الأدبية (داء قديم وعيب عتيق)[51] . وكانت الإشارة إليها في كلام النقاد منذ العصور الأولى ، ففي عصر ما قبل الإسلام أشار طرفة بن العبد إلى السرقة الأدبية بقوله ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيت وشر الناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائـــــله بيت يقـــــال : إذا أنشدته صدقا[52]

غير أن النقاد وقفوا على بيت لطرفة، ووصف بأنه أخذ من بيت امرئ القيس

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك آسى وتجمل[53]
فلم يغير طرفة منه إلا قافيته، فقال:

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك آسى وتجلد [54].

هذا مع اختلاف النقاد في وصف ذلك بالسرقة، فبعضهم يرى أن طرفة سرقه من امرئ القيس،، في حين يرى البعض الأخر أن ما حدث ما هو إلا توارد خواطر .
وفي العصر الإسلامي أصبح تتبع السرقات الأدبية أكثر شيوعا، ولم يعد أمرها يخفى على الشعراء و الرواة، فقد قال حسان بن ثابت :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري[55].

وفي العصر الأموي أخذت دائرة السرقات تتسع بسبب كثرة التلاحي ؛ بين الشعراء للعصبيات القبلية و الانقسامات السياسية ؛ وذكر الرواة الكثير من الشواهد على أن للفرزدق تاريخاً حافلاً بالسرقات ، ولم يكن وحده موضع اتهام ، فهناك أبيات كثيرة متداولة بين جرير والفرزدق؛ يدعي كل منهما أنها له، وأن الآخر سرقها منه.

عن الفرزدق قوله:

أتعدل أحسابا لئاما حماتها بأحسابنا إني إلى الله راجع[56].

عن جرير قوله :

أتعدل أحسابا لئاما حماتها بأحسابكم إني إلى الله راجع[57].

وقد أثارت هذه القضية حركة نقدية كبيرة في العصر العباسي، فتناولها النقاد بالدرس و البحث و ألفت فيها الكثير من الكتب [58] ، فقد بدأت دراسة السرقات دراسة منهجية، بظهور الشاعر أبي تمام " حبيت بن أوس الطائي " ؛ إذ شهدت تلك الفترة قيام خصومة عنيفة حول شعر هذا الشاعر، واتخذت مسالة السرقات سلاحا قويا للتجريح . كما أن أصحاب أبي تمام وأنصاره قالوا: إن شاعرهم اخترع مذهبا جديدا وأصبح إماما فيه، فلم يجد خصوم هذا المذهب سبيلا للرد على ذلك إلا أن يبحثوا للشاعر عن سرقاته ليؤكدوا على أنه لم يأت بشيء جديد، وإنما أخذ من السابقين، وتبعث هذه الخصومة، الخصومة حول أبي الطيب المتبني،[59] . ولما أن جاء القاضي الجرجاني كان موضوع السرقات الأدبية قضية، فندب نفسه للوساطة بين المتبني وخصومه؛ بسبب اتهام خصوم المتبني له بأنه عهد إلى شعر أبي تمام فغير ألفاظه، وأبدل نظمه، وأخذ معانيه كما أخذ معاني غيره[60].

2/ الجرجاني والسرقات الشعرية : ذكر الجرجاني السرقات الأدبية من بين القضايا النقدية التي تناولها في كتابه الوساطة فقال عنها : (باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرر . وليس كل من تعرض له أدركه ولا كل من أدركه استوفاء، و استكمله)[61] . كما يقول في الوساطة: (هذا باب يحتاج إلى امعان الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة)[62].

ومن ثم فهو يرى أن السرقات الأدبية موضوع له خصوصية وثقافة ولا يقدر عليه إلا القلة ، ومعرفة الناقد لمواطن السرقة ونوعها دليل على أنه من عباقرة نقاد الشعر (ولست تُعد من جهابذة الكلام ، ونقّاد الشعر ،حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط

علما برتبه ومنازله [63] واعتمد الجرجاني آراء الآمدي في مشكلة السرقات ولكنه طورها وأمعن في التدقيق و التحليل ، فقد رأى أن المعاني المشتركة التي شاعت بين الناس لا يعد تداولها سرقة، وأن التشابه في الألفاظ ليس من السرقة في شيء[64].

وقرر القاضي ما قرره الآمدي نفسه وغير الآمدي أن (الشاعر يستعين بخاطر الأخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذي صدرنا بذكره الكلام وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل و القلب وتغير المنهاج و الترتيب)[65].

وقوله : (متى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكرة، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا، ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه، أن يجده بعينه أو يجد له مثالا بغض من حسنه. ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة) [66] . وبهذا يعتذر الجرجاني عن المتأخرين لأن المتقدمين استغرقوا المعاني وهو بهذا يدافع عن الشاعر المحدث عامة و المتبني خاصة.

3ـ أنواع الســـرقات عند الجرجاني: يرى الجرجاني أن معرفة السرق وأنواعه دليل على أن الناقد من جهابذة نقد الشعر، والسرقـــة كما يراها الجرجـــاني: السرق، الغصب، الاختـــلاس، الإلمـام ، الملاحظة ، التناسب ، احتذاء المثال ، القلب ، النقل ، تغيير المنهاج ، والترتيب . فيقول في وساطته: (ولست تعد من جهابذة الكلام، ونقاد الشعر، حتى تميز بـيـن أصنـــافه وأقسامه وتحيط علما برتبه ومنـازله ، فتـفصل بيـن السرق و الغصب وبين الإغارة و الاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة)[67] .

كما حدد القاضي المواضع التي تمتنع فيها السرقة بأنها :

1ـ المعاني المشتركة التي لا ينفرد بها شخص دون الآخر.

2ـ أسماء المواضع.

3ـ الألفاظ المشهورة.

4ـ المعنى المستفيض المتداول، وإن كان مخترعا.

5ـ توارد الخواطر.

فيقول القاضي: (وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه، و المبتذل الذي ليس أحد أولى به، وبين المختص الذي حازة المبتدئ فملكه وأحياه السابق فاقتطعه، المعتدي مختلسا سارقا، و المشارك له محتذيا تابعا، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه: أخذ ونقل ، والكلمة التي يصح أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان)[68]

والسرقة عند الجرجاني نوعان: محمودة (الممدوحة)، والمذمومة .
فالسرقة الممدوحة: عندما يتفاضل الشعراء في المعاني المشتركة، والمخترعة المتداولة، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع .
4ـالسرقة الحسنة عند الجرجاني: حدد الجرجاني مواطن السرقة الحسنة فجعلها في خمسة أنواع هي :
1- الزيادة في المعنى: مثال ذلك قول العباس بن الأحنف:

بكت غير آنسة بالبكاء ترى الدمع في مقلتيها غريبا(69)

وقول المتنبي:

أتتهن المصائب غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال(70)

فيعلق الجرجاني بأن المتنبي أخذ المعنى من العباس وزاد وأحسن، وملح بذكر الدلال
2ـ الاختصار: ويعني به جمع الكلام الطويل في كلام أقل(71)، ومن ذلك قول الخنساء :

وما بلغت كف امرئ متناول من المجد ألا والذي فيك أطول
وما بلغ المهدون نحو مدحه وإن أطنبوا إلا وما فيك أفضل(72)

فيرى الجرجاني أن أبا الجويرية أخذهما أفضل أخذ ، وجمعهما في بيت استوفى فيه معنييهما .فقال :

يزيد على سرو الرجال بسروره ويقصر عنه قول من يتمدح(73)

3ـ **النقل:** وهو نقل المعنى من غرض إلى معنى آخر، ومثل لذلك بقول كثير عزة:

أريد لا أنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليل بكل سبيل

فنقله أبو نواس من معناه هذا إلى معنى آخر فقال:

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان(74)

4ـ القلب: وهو نقض المعنى، كقول المتنبي :-

أحبه، وأحب فيه ملامة أن الملامة فيه من أعدائه[75]

فقول المتنبي هذا نقض به قول أبي الشيص:

أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

فإذا أخذ شاعر معنى بيت آخر ، ولكن بيته كان أملح لفظا وأصح سبكا، فيكون ذلك سرقة حسنة ، والقاضي في كل حديثة عن السرقة الحسنة ،والأمثلة التي ساقها لها ، لا يقصد الإقلال من شأن الشعر الذي يوصف بأنه سرقة ، بل مدحه وأجازه وعده تطورا لصياغة المعاني وتجديدا [76]

5ـ السرقة المذمومة عند الجرجاني نوعان:

أـ سرقة ظاهرة تكون في اللفظ والمعنى، ويسميها النقل أو النسخ، وهي أسوا أنواع السرقة ومن ذلك [77] قول أبي تمام:

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحتي وزادي [78]

أخذه أبو الطيب المتنبي فقال:

محبك حيث اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد [79]

فيرى القاضي إن (هذا من أقبح ما يكون من السرقة؛ لأنه يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والقافية) [80]

سرقة خفية : وهي تحتاج إلى فطنة من الناقد ، وهذا النوع هو محك الناقد الحق ، ومثال ذلك قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع [81]

وقول الأفوه الأودي :

إنما نعمة قوم متعـــــــة وحياة المرء ثوب مستعار

فهذه سرقة خفية وإن كان هذا ذكر الحياة، وذلك ذكر المال و الولد[82]

ومن ثم فالجرجاني يرى أن السرقة الأدبية موجودة منذ القدم، ولم ترتبط بشاعر معين ولم يسلم منها أحد. كما أن الاسم اختلف من ناقد إلى آخر، فهناك من قال بالأخذ أو النقل، ولم يستعمل لفظ السرقة، وقد تناولها النقاد ـ قضية نقدية ـ بظهور الشاعر أبي تمام والخصومة حوله. ولذلك وقف عندها الجرجاني في كتابه الوساطة؛ موضحا أنها باب مهم، يتوجب على من يتصدى لنقد الشعر الإلمام به، ومعرفة أشعار العرب ليميز منها ما أخذه اللاحق من السابق، وما أجاد به في أخذه ، وقد اتفق رأي القاضي الجرجاني مع رأي الآمدي بجواز السرقة الأدبية بشرط أن يكون الأخذ واضحا ، وأن يطبع الآخذ ما أخذه بطابعه الخاص ، متفننا في ذلك .

المطلب الخامس ـ المبالغة والغلو:

المبالغة: أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف، تقصد فيه الزيادة على غيره. فتبلغ بالمعني أقصى غاياته، ومن طرفها الإتيان بصيغة المبالغة مثل قتال وصبور ورحيم.....، أو التشبيه، كالتشبيه بالأسد في الشجاعة، أو القمر في البهاء، أو ترادف الصفات وتكريرها للتهويل، كما في القرآن الكريم قال ـ تعالى-: ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ** ﴾[83] ، وكذا إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة فيه

أما الغلو: فهو تجاوز حد المعنى إلى ما يمتنع وقوعه، وهو ما يستعملونه في مدحهم وهجوهم، ويحسن إذا اقترن بما يقاربه من الحقيقة، مثل: كاد، ولو

كقول المتنبي يصف فرسا له بسرعة جريه

ويكاد يخرج سرعة من ظلة لو كان يرغب في فراق رفيق[84]

فأراد به، إنه يقرب أن يفارق ظله من سرعة عدوه، وما يمنعه من المفارقة إلا أن ظله رفيق له، ومن شيمته ألا يفارق رفيقه [85]

وبعض البلاغيين يجعل الغلو والإغراق جزءا من المبالغة، ويذكرهما قسمين مندرجين تحت المبالغة [86]

وفي هذا البحث ستكون لنا وقفة مع هذين المصطلحين (الغلو والمبالغة) لنرى كيف تعامل معهما القاضي الجرجاني من جملة القضايا النقدية التي عرض لها في كتابه الوساطة.

أصل المصطـــلح ونشـــــأته: قبل الحديث عن المبالغة والغلو نقول إن الأدباء والنقاد تناولوا هذين المصطلحين قبل الجرجاني، ليوضحوا بهما ما يظهر من زيادة عند تفسير المعنى، وقد عرفا عند العرب منذ القدم ووجدا في أشعارهم، ففي عصر ما قبل الإسلام كان العرب يؤثرون الغلو والمبالغة وقد زخرت بها قصائدهم، وقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

إذا بلغ الفطام لنـــا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا [87]

وقول حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[88]

وعندما جاء الإسلام هذبهم بتعاليمه السمحة فظهر ميلهم إلى التوسط والاعتدال، ومن هذا ما روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه كان يقدم زهيرا على غيره من الشعراء، لأنه (لا يعاضل بين القول، ولا يتتبع حوشي الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)[89] بمعنى أنه كان لا يبالغ كما كان يفعل غيره من الشعراء في أشعارهم .

الغلو و المبالغـــة عند النقاد: اختلفت مواقف النقاد العرب و الأدباء وتباينت نظرتهم للغلو والمبالغة، فمنهم وهم القليل من ينكرها جملة ؛ لأنها لا تجري على منهاج الصدق، وفضيلة الصدق لا تنكر ، في حين إن الغالبية العظمى منهم يرون أن المبالغة في الشيء ، إلى حد الغلو خير مذهب فقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر يقول : (إن عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر و الشعراء قديما)[90] في حين ربط ابن طباطبا العلوي بين الصياغة و المعنى ، أي : أن صدق المعاني وحسن الصياغة لهما أثر في المعنى ولو أضفنا لهما ما يجذب النفوس فهذا أجمل ، أي أن يبالغ الشاعر في وصفه ليزين المعنى ، فذلك لا يخرجه من جيد الشعر .

فيقول: "إن الشعر ما أن عري من معنى البديع لم يعر من حسن الديباجة وما خالف ذلك ليس بشعر"[91]

أما الحاتمي: فلم يكن له موقف حاسم من القضية، فهو لا يرى بأسا من إيراد نماذج من الغلو في كتابه، ويسمي كل بيت منها (أبدع بيت قيل في الإغراق) دون أن يكون منتميا إلى أحد الفريقين[92] ، ويرى ابن رشيق القيرواني :أن النقاد مختلفون في

مواقفهم من الغلو ويعلل لجوء الشاعر إلى الغلو قائلا : (المبالغة في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ ، فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين وإنما يقصدها من ليس يتمكن من محاسن الكلام)[93]

الغلو والمبالغة عند القاضي الجرجانـــي: إن هذه الآراء كلها سبقت القاضي الجرجاني ، وقد اطلع عليها وبنى موقفا نقديا خاصا به ، فتحدث القاضي عن الغلو و المبالغة فقال : " فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين ، وموجود كثيرا في الأوائل ، و الناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها ، جمع بين القصد والاستيفاء ، وسلم من النقض و الاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط وشعبة من الإغراق ، و الباب واحد ، ولكن له درج ومراتب "[94]

فقد كان القدماء يقتصدون فيها، حتى استرسل فيها أبو تمام وتبعه المحدثون، فمنهم محسن ومسيء، ومعيب ومقصر، فيرى أن الإفراط في الغلو والمبالغة فيه فساد اللغة، واختلاط الكلام، وقد أوضح الجرجاني موقفه من الغلو فهو عنده عيب مشترك بين الشعراء جميعا، ولذلك فهو يؤثر التوسط [95] فيقول في وساطته:"التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف ، والاقتصار على ما ظهر ووضح "[96]

والغلو عند الجرجاني نوعان :

غلو حسن، وغلو قبيح، وإن كان أهل العلم يرون أن الغلو بنوعيه معيب مردود، ومرذول منفي فمن الغلو الحسن عند الجرجاني قول عنترة:

وأنا المنية في المواطن كلها والموت مني سابق الآجال[97]

وقول الأعشى:

ولو أسندت ميتا إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قـــابر[98]

ومن الغلو القبيح ويسميه الجرجاني إحالة فاسدة، قول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق[99]

وقول المتنبي:

وضاقت الأرض عنهم حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا[100]

فنلاحظ أن القاضي الجرجاني وقف موقفا وسطا في مسألة الغلو؛ فأجازه بشرط التوسط، فلا يتجاوز فيه الشاعر إلى ما يخالف العقيدة، أو ما يستحيل تحققه، وهو في ذلك يقف موقفا وسطا بين فريق قبله وفريق آخر من النقاد والأدباء رفضه .

كما يقول إن أصحاب البديع من المحدثين قد لهجوا به، واستحسنوه، وتنافسوا فيه ، وبارى بعضهم بعضا به ، وهذا لا ينفي وجوده عند القدماء من الشعراء ، بل إن قصائدهم كانت زاخرة به .

ولما كان أصل كتاب الجرجاني وساطة بين المتنبي وخصومه؛ فقد لجأ إلى القياس على قبول النقاد للغلو والمبالغة واستحسانهم لهما، ليقول رأيا في مبالغة شاعره المتنبي، ويفهم منه رأيه في هاتين القضيتين " الغلو والمبالغة " . فالجرجاني يقول إنه إذا كان المتنبي قد غالى وبالغ، فإن غيره من المتقدمين و المتأخرين قد فعل ذلك، وما دامت المبالغة لم تسقطهم فيجب ألا تسقطه – أيضا- وهو بهذا اعترف بالغلو في بعض أبيات المتنبي، وسلم للخصوم بذلك وأخذ في الاعتذار عنها إذ هي ليست من عيوب الشعر، بل من أسسه الجمالية [101] .

ونفهم من ذلك قبوله للمبالغة والغلو في الشعر، إذ هما ليسا مما يعاب به الشاعر، ولا تضعفان شعره، وإلا كانت أشعار المتقدمين ضعيفة بغلوهم ومبالغاتهم الشعرية.

هذه القضايا هي بعض مما طرحه القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني من قضايا نقدية في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه. وهي قضايا كانت مثار نقاش بين نقاد عصره، وأسست عليها أحكامهم بجودة الشعر من عدمها، وتباينت آراؤهم فيها بين قبول ورفض، وكلها تسعى إلى جودة النص وحسن سبكه وسلامة معانيه .

الخاتمة:

بعد هذه القراءة لكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، نستخلص منه أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني جمع في كتابه بين التنظير والتطبيق. فقد وقف عند قضايا النقد الأدبي التي اسس لها من سبقوه، فقد حواها فهما ودرسا، ثم اثبت منها في هذا الكتاب كل قضية رآها اساسا للعمل الأدبي الجيد. ولم يقف عند حدود جمع تلك القضايا، بل عمد إلى التدليل على صحة رأيه في تخير تلك القضايا النقدية. ولما كان عنوان كتابه يختص بالوساطة بين المتنبي وخصومه، فإن جل أمثلته جاءت من شعر

المتنبي، ولكن في غير تحيز، إذ كان يسوق أشعارا لشعراء آخرين، و- أيضا - يحكم بعدم جودة شعر المتنبي إذا خالف ما أسست عليه القواعد النقدية الصحيحة. التي عني بها شرحا وتوضيحا في هذا الكتاب، وهو في ذلك يظهر مقدرة أدبية كبيرة على فهم الشعر وتذوقه، وعلم كبير بقواعده، شأنه في ذلك جل علماء عصره الذين تشهد لهم مؤلفاتهم بالعلم الكبير. وبذلك يوصي كل دارس لمؤلف من مؤلفاتهم بالالتفات إلى هذه الكنوز التراثية، وإعادة القراءة فيها مرات ومرات، ففي كل قراءة نكتشف منهم علما جديدا.

الهوامـــــــــش:

1) ينظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي ، تح . احسان عباس ، ط. دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ج 14، ص 14 / وفيات الأعيان، لابن خلكان ، تح. احسان عباس ط. دار صادر – بيروت ، ج 2، ص 442.
2) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي، تح . مفيد قميحة ، ط . دار الكتب العلمية – بيروت ، ج 4 ، ص 4.
3) كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م، ص 206.
4) ينظر القاضي الجرجاني و النقد الأدبي، د. عبده عبد العزيز فليفلة ، الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ط3 ، 1991 ، ص 40.
5) يتيمة الدهر، ج 4، ص 4.
6) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد، ، ص 111، 112، 113.
7) ديوان أبي تمام ، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ – 1987 م، ص 83.
8) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد إبراهيم وعلي البجاوي، مطبعة دار عيسى الحلبي وشركاه ، ط3 ص 49.
9) ينظر القاضي الجرجاني و النقد الأدبي، ع س، ص 226.
10) ينظر الوساطة ، ص 231.
11) الوساطة بين المتنبي و خصومه ، ص 82.
12) ينظر تاريخ النقد الأدبي و البلاغة، محمد زغلول سلام، مطبعة دار المعارف، الإسكندرية، 2000 م، ص 283، 284.
13) ينظر قضية عمود الشعر العربي القديم، وليد قصاب، دار المكتبة الحديثة، العين، 1985 م، ط 2، ص 20.
14) الموازنة بين الطائيين ، الحسن بن بشر الآمدي ، تح . أحمد صقر ، ط4 ، دار المعارف – مصر ، د ت ، ص 423.
15) المصدر السابق، ص 425.
16) ينظر النقد العربي التطبيقي بين القديم و الحديث، طه أبو كريشة، مكتبة لبنان – بيروت، 1997 م، ط 1، ص 99.
17) الوساطة بين المتنبي وخصومة، ع س، ص 33.
18) ينظر قضية عمود الشعر العربي القديم ، ص 35.
19) ينظر النقد العربي القديم، محمد البرازي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1987 م ، ط 1، ص 45.
20) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 100.
21) ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 404، 405.
22) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 16.
23) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 509.
24) النقد الأدبي الحديث، د محمد غنيمي هلال، دار العودة ، بيروت، 1987 م، ص 201.
25) البيان و التبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت، ط 2، ج 1، ص 89.
26) المصدر نفسه، ص 66.
27) الشعر و الشعراء، ابن قتيبة الدينوري، دار الحديث ، القاهرة، 1423 هـ ، ج1 ص 6.
28) ينظر النقد الأدبي الحديث، مصدر سابق، ص 205.
29) الشعر و الشعراء، لابن قتيبة ،ج1 ، ص 12.
30) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق عباس عبد السائر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005 م، ط 2، ص 12.
31) عيار الشعر، ، ص 131.

32) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001 م، ط 1، ج 2، ص 94.
33) ينظر النقد الأدبي الحديث، ، ص 204.
34) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 45.
35) ينظر النقد الأدبي الحديث، ، ص 206.
36) ديوان أبي تمام ، ص 158 .
37) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي ، دار بيروت للطباعة ، بيروت ، ص85.
38) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص129
39) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج2، 202
40) المصدر السابق ، ج2ص 251
41) المصدر السابق ، ج 2 ، ص 109
42) المصدر السابق ، ج 1، ص 105
43) المصدر السابق ، ج 1 ، ص 168
44) ينظر العمدة في محاسن الشعر و آدابه ، ص 68.
45) ينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه ص126
46) ينظر الوساطة بين المتنبي وخصومه ص126وما يليها
47) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 299
48) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 364
49) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق وليد عرفان، مطبعة دار صادر، بيروت، 1974 م
50) ينظر العمدة في محاسن الشعر و آدابه ، ص 68
51) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 187، 188، 189
52) الوساطة بين المتنبي و خصومه ، ص 214.
53) ديوان طرفة بن العبد، تحقيق علي الجندي، مطبعة دار الأنجد ، القاهرة، 1958 م، ص 34.
54) ديوان امرى القيس، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، 1954 م – 1377هـ ، ص 100.
55) ديوان طرفة بن العبد، ص 23.
56) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفان، مطبعة دار صادر، بيروت، 1974 م، ص 60.
57) ديوان الفرزدق، ط الصاوي، مصر، 1354هـ ، ص 470.
58) ديوان جرير، ص 400.
59) ينظر النقد المنهجي عند العرب منهج البحث في الأدب و اللغة، محمد مندور، دار النهضة، مصر، 1996 م، ص 111.
60) ينظر القاضي الجرجاني و النقد الأدبي، ص 316.
61) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 183.
62) المصدر نفسه ، ص 108.
63) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 183.
64) ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 323.
65) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص214
66 المصدر نفسه ، ص215
67 المصدر نفسه ، ص183
68) المصدر نفسه ، ص183
69) ديوان العباس بن الأحنف، تجميع حسن نصار، مطبعة مكتبة مصر، د ت، ص 90.
70) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 234
71) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 209.
72) ديوان الخنساء، أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، 1988، ص 99.

73) ينظر القاضي الجرجاني و النقد الأدبي ، ص 316
74) ديوان أبي نواس ، الحسن بن هاني، لجنة التأليف و الترجمة والنشر، القاهرة، 1958 م، ص 203 .
75) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 234
76) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 202.
77) المصدر نفسه ، ص، 203.
78) ديوان أبي تمام ، ص 85.
79) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 234
80) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 245.
81) ديوان لبيد بن ربيعة ، ص 20 .
82) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 203.
83) من سورة النور آية 39.
84) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 234
85) ينظر النقد الأدبي الحديث ، ص 216، 217.
86) عيار الشعر ، ص 48.
87) شرح المعلقات السبع، الإمام الوزني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م، ص 40.
88) ديوان حسان بن ثابت، ص 60.
89) الشعر و الشعراء، لابن قتيبة ، ص 26.
90) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ص 26.
91) ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص 143.
92) المصدر نفسه ، ص 250.
93) العمدة لابن رشيق ، ج 2، ص 54.
94) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 420.
95) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 174.
96) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص 433.
97) ديوان عنترة العبسي ، ص 69.
98) ديوان الأعشى ، ص 103.
99) ديوان أبي نواس ، ص 202.
100) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ج1، 234
101) ينظر القاضي الجرجاني الأديب الناقد ، ص 184، 308.